دراسة نقدية لمدونة "سَمُرَات الحَيّ"

د. يوسف حسن العارف

1- في جولة رحلية سابقة، كنا في حائل، وكان محور اللقاء عن القهوة السعودية [انظر مقالنا عن هذه الرحلة، صحيفة غراس الإلكترونية 14 فبراير 2023م] وكان لقائي المبهج مع الأستاذ الدكتور ظافر العمري الذي أعرفه ناقداً وأستاذاً أكاديمياً، ومحاوراً ذكياً، ومحدثاً لبقاً، وذاكرة أدبية تورق بكل جميل ومفيد. لكنني اكتشفته اليوم شاعراً، عندما أهداني ديوانه الأول (سمرات الحي) الصادر عن نادي حائل الأدبي عام 1444هـ. ووعدته بالقراءة النقدية عن هذا الديوان في سياق مقارباتي الشعرية المتنوعة. وقد أكدت ذلك في مقالتي عن حائل والقهوة السعودية التي أشرت إليها آنفاً.

وها أنذا اليوم أعود للديوان قارئاً ومحللاً وناقداً وكاتباً. فلعل فيما أكتبه بعثاً جديداً للحروف والقوافي والمفردات التي جاءت في الديوان، ومسباراً جمالياً لتلك الفضاءات الشعرية التي احتوتها هذه المدونة الشعرية!!

* * *

2- من سيرته المرفقة في آخر الديوان (ص 103)، يشير إلى أن له عدد من المؤلفات في البلاغة والنقد والأدب وله ديوان تحت الطبع!! ولعله يقصد هذا الديوان/ البكر وفيه 25 نصاً/ قصيدة ومنها قصيدة بعنوان (سمرات الحي) وهي الثانية والعشرين في ترتيب القصائد ومنها تحول إلى عنوان/ وسم للديوان بكامله. وهذا أحد مداخل القراءة الناقدة فيما يسميه النقاد والمحدثون العتبات النصيَّة أو الموازية!!

2/1 ولنبدأ المقاربة النقدية أولاً مع هذه القصيدة/ النموذج، والتي استحقت أن يتحول عنوانها من داخل الديوان إلى خارجه عنواناً رئيساً، ولافتة تعريفية للديوان كاملاً.

تغريك القصيدة بموسيقاها الخليلية، وقافيتها الميمية وبحرها (البسيط) الذي يوحي لك - كقارئ - بنَصٍّ خالد في ذاكرتنا الشعرية وهو نص قصيدة نهج البردة لأحمد شوقي، ومطلعه:

ريم على القــاع بين الحـل والحـرم
أحللن سفك دمي في الأشهر الحرم

وهنا تبدأ رحلة (التناص) بين هذا وذاك في جمالية أسلوبية/ شاعرية مائزة على مستوى الصوت والموسيقى، وعلى مستوى القافية الواحدة، وعلى مستوى المفردات والكلمات. ومما يؤكد هذه (التناصيَّة) هو (المكان) الذي تتحرك فيه أبيات القصيدتين، فإذا كان أحمد شوقي يتحدث عن مكة والتماهي الروحي مع المقام النبوي فإن ظافر العمري يتحدث عن الطائف والتماهي النفسي وذكرياته فيها.

2/2 يقوم هذا النَّص على بنائية شعرية ترتهن للسائد والمكرر المعاد من التعالقات الذات/ مكانية، فترى الطائف ومكوناتها البينية: مدينة الورد، قطعة من بلاد الشام، الشفا، الهدا، طائف الحسن، وج، طعم الكرم!! كما نرى الشاعر/ ذاته وأحلامه وهواجسه وذكرياته وحالاته النفسية:

طــاف الشـــــوق بي زمنـاً
يا أول العمــر إشــراقاً لأسئلتي
مـلاعب فـي ربا وج وأنـــــدية
عهدي بتلك المغاني وهي وارفة

وهذه الثنائية (الذات والمكان) جعلت من النَّص وعنوانه الداخلي مكسباً شعرياً يستحق إشاعته تعريفاً بالديوان كاملاً فكان عتبة عنوانية لافتة ومثيرة!!

وقد جاءت العنونة جملة من كلمتين (سمرات الحي) وأصلها في القصيدة وردت في البيت الخامس:

غنيت يسبق صوتي شوق أوردتي
فأورقت (سمرات الحي) من نغمي

و(سمرات الحي) في هذا البيت تتناص مع معلقة امرئ القيس التي جاءت فيها هذه الجملة في قوله:

كـأني غــداة البين يوم تحمـلــوا
لدى (سمرات الحي) ناقف حنظل

وقد قال شراح البيت/ والمعلقة أن الشاعر يعني تلك الشجرة الكبيرة المعمرة المعروفة بـ(الطلح) والتي يستظل بها الناس وقت الهجير ولذلك لجأ إليها الشاعر حائراً من حاله، مستجيراً بها من هجير الحب والوله بعد رحيل محبوبته، ويصف حاله كأنه (ناقف الحنظل) أي الذي يستخرج حباً من شجر الحنظل/ المر المذاق، فلا يشبعه ولا يرويه!!

لكن المفارقة جاءت في المعاني والدلالات فشاعرنا ظافر العمري من حبه للطائف وارتياحه فيها وشوقه إليها جعله يغني ويطرب حتى أن شجر (الطلح) (السمرات) أورقت من هذا الغناء وهذا النغم!! وبقدرة قادر تحولت هذه الجملة من البيت الخامس إلى عنوان للنَّص، ثم ارتفعت وارتقت بنيوياً لتكون شعاراً ووسماً ونعتاً للديوان بأكمله.

ومن الجميل هنا – ونحن في سياق العتبة العنوانية – أن نلاحظ عناوين القصائد في الديوان عبر هذه الإحصائية ودلالاتها الأسلوبية:

عدد القصائد في الديوان	العناوين الثنائية	العناوين الثلاثية	العناوين المفردة
25	15	1	9

<u>والنتيجة:</u>

عنوان الديوان/ جملة ثنائية.

عناوين القصائد/ 15 عنواناً جملة ثنائية.

وهذا يعني شمولية العنوان الرئيس وقدرته على احتواء العناوين الثنائية الداخلية. وهذه جمالية فنية وأسلوبية يتعاطاها الشاعر بوعي منه أو بغير وعي ولكنها القراءة والمقاربة النقدية التي تفتق مثل هذه الدلالات!!

* * *

3- وإذا استنطقنا فضاءات الديوان وتفريعاته الموضوعية وجدنا فيه القصائد المكانية والوطنية، والقصائد الإيمانية/ الدينية، والقصائد التربوية والتعليمية، والقصائد الأسرية والعائلية. ويجمع ذلك ما يسميه النقاد بالشعر الوجداني الذي تغلب عليه الذاتية والمشاعر العاطفية والأحاسيس الخاصة أو العامة، والتعبير عن العواطف في مجالاتها المختلفة من فرح وهم وحزن وحب وكره ومواعظ وقضايا إنسانية عبر المنظور الإسلامي والعقدي التوحيدي.

ولعلِّي أزعم – نقدياً – أن الديوان كله ينطلق من رؤية إسلاموية للشعر والمشاعر، فيوظف الشاعر انتماءه لما يسمَّى (الأدب الإسلامي) في كل طروحاته الشعرية سواءً أكانت ذاتية أم جمعية/ جماعيَّة!!

ويتأكد ذلك من قوله في نصٍّ وطني بعنوان (سيد الشجعان) ص ص 25-30:

يا ناصـر الدين الحنيف وركـنه
إن قلَّــت الأنصــار والأركــان

الـدين والوطن الكـريم وعـزة
غـراء تعـرف قـدرهـــا الأديان

لن يستباح حمى العقيدة بيننا
وحمى العقيدة مسجد وأذان

يا موطنــاً بالدين يعلو شــأنه
الـــدين جـدده لنا سلمـــان

كما يتجلى في نصّ (لغة العلوم ص ص 45-51):

لم يبق في جسد العروبة من دم

إلا دم يجـــري إلـى الآجـــال
.....

كـل العلـــوم لسـانها عجـميةٌ
أنَّـــى لـــنا بمـــؤذنٍ كـــبلال

وفي نص (مهبط الوحي) ص ص 31-34 يقول:

إذا أقبـلت نحـوك في جلال
تولى الحزن والتأمت جراحي
....

وابتـدع القصيـدة فيك حتى
يظـن الشعر أني غير صاحِ
....

وأقـبل بالفـؤاد وبي هيـام
إذا ناديت "حيِّ على الفلاح"

ونموذج أخير يؤكد تلك (الأسلمة) الأدبية والشعرية وذلك في نصّه الموسوم بـ(هوى) ص ص 73-75:

ونلحن في مجالسنا بقـول
وفاكـهة تسر النـاظـرينا
....

ويُنضَج في موائدنا طعـام
لـذيذ من لحـوم الآخـرينا
....

فما إن ننتهي في القدح إلا
ونبـــدؤه كأنا قـد نسـينا

في هذه المقتبسات تواشج ذاتي بين الموضوع والروح الإيمانية/ العقدية التي تأسس عليها وتنامى فيها فجاءت الحروف والقوافي مصبوغة بهذا الحس الإسلاموي والتناصات الدينية/ القرآنية والنبوية!!

* * *

4- ومن الجماليات الفنية والأسلوبية في هذا الديوان احتفاء الشاعر بالنص العمودي/ البيتي وعدم الخروج على عمود الشعر بنصوص التفعيلة أو النثيرة أو الحداثة!! فكل القصائد الـ(25 قصيدة) عمودية المبنى/ بيتية المعنى وإن حاول في نصه الأسري/ العائلي (لين) ص ص 69-72، أن يكتبه بطريقة سطرية على أنه نص تفعيلي لكن البحر والقافية تكشف لنا أنه نص عمودي/ بيتي شطري، على بحر الرجز (مستفعلن مستفعلن مستفعلن)!!

ويؤكد هذه الاحتفائية في قصيدة بعنوان (لغة العلوم) ص ص 45-51 يقول فيها:

لم تبق للفصحى سوى أنشودة
فـي حفـل تـوديـع أو استقبـال
....

وكلامـنا لفـظ مفيـد كاسـتقم
وأكفنـا لم تسـتقم بفعـــال
....

ناديت بالشعر الأصيل فلم أجـد
صـرحاً بنته فصـاحة الأقـوال
....

ولسـاننا عـيٌّ تكســر حرفه
لـم يكتتـب فـي غـزوة ونـزال

ومع أن الشاعر هنا يتحدث عن اللغة العربية ودورها في النهضة والتقدم، وواقعها المؤلم حيث انحسرت إلى الكلام المجاني والبلاغي دون التأثير التقدمي. لكنها تلمح إلى (الشعر الأصيل) الشعر العمودي/ البيتي الذي جفته المدونة الشعرية الحداثية!!

وهذا ما يؤكده الشاعر في نص بعنوان: (اللحن الجميل) ص ص 61-63 يقول فيه:

ما الشعر إلا أن تكون مخـالفاً
لطـريقة يرضـى بهـا الكتــاب
....

الشعر مثل الغيث حين تسوقه
ريـح، وسـائر ما يقـال سراب
....

لا تنكـروا لحنـاً وقد نطقـت به
زمـن (الخليل) جـتآذر وكعـاب

ورغم إيماننا بقيمة القصيدة العمودية، وديمومتها الزمنية والمستقبلية، إلا إني كنت أتمنى على الشاعر – وهو قادر إن شاء الله – أن يجرب الكتابة الشعرية عبر النَّص التفعيلي والقصيدة النثرية، وصولاً إلى القصائد الحداثية والخروج من رتم القصائد الواضحة المعاني، وذات القراءة الواحدة والأفق التكراري لأن قصائد التفعيلة، والنصوص الشعرية النثرية أو الحداثية تعطينا – كقراء ونقاد أبعاداً جديدة للقصيدة المعاصرة التي تخرج على الأقواس المعدة مسبقاً والتي جعلت شعرنا العمودي/ البيتي يسير في فلك التقليد والتكرار، أو كما قال في النص السابق:

لم يبق للفصحى سوى أنشودة
في حفـل تـوديـع أو استقبـال

أو قوله في النص الآخر:

ما الشعر إلا أن تكون مخالفاً
لطـريقة يرضـى بهـا الكتـاب

* * *

5- وختاماً...

فلعلنا نقف هنا، لنترك للقراء الأكارم فرصة الحوار والمداخلة مع هذا الديوان وقصائده الغرر، فيكفي ما أشعلناه من قناديل نقدية، وما تعاطيناه من جماليات فنية وأسلوبية.

وعلى اعتبار أنه الديوان الأول لشاعرنا ظافر العمري فهو مبشر بولادات شعرية قادمة وجديدة وأتمنى أن تكون متجددة ومعاصرة وذات أيقونات تفاعلية وبذلك يتنامى المشهد الثقافي السعودي والعربي بولادة شاعر مثقف منتج وفاعل في ساحتنا النقدية والشعرية. وإليه أهدي مقاطع من هذا النص من آخر دواويني الشعرية بعنوان: الفتى والقوافي العجاف:

- 1-ما الذي أشعل قنديل حزني/ هذه (الحزة) من عمر الفتى (ال) كنته ذات مساء؟!

....

- 2- كان ذاك الفتى يورق بالصحو/ ويقتات الأغاني العِذَاب / كان مولعاً بالقصائد/ يستشرف القادم بالفأل/ يمنح الأرض خصوبتها/ يقتبس نور مشكانه من شموس لا ترى/ ونجوم تسامت إلى الضوء تواً/ وعابرة من سحاب هتون!!

....

- 3- صار هذا الفتى مجدب حقله/ تتنامى البراغيث من لحمه/ يوشك الحزن أن يصنع منه ندىً شاحباً/ وليالٍ ذات أقمار كسافٍ/ وشموس

لاتبين!!

....

- 4- وهذا أنا الآن/ أطفئ مشكاة حزني/ أيمم شطر النبوءات/ لعل الفتى (ال) كنته ذات مساء/ يورق بالشفق الزاهي/ وينتعل الممكنات/ يحرث أرض القصائد/ يبذر فيها الجمال/ يستشرف الآتي على أمل من حراك!!

من ديوان: الشاعر والأمم المتحدة

صادر عام 1444هـ ص ص 61-63

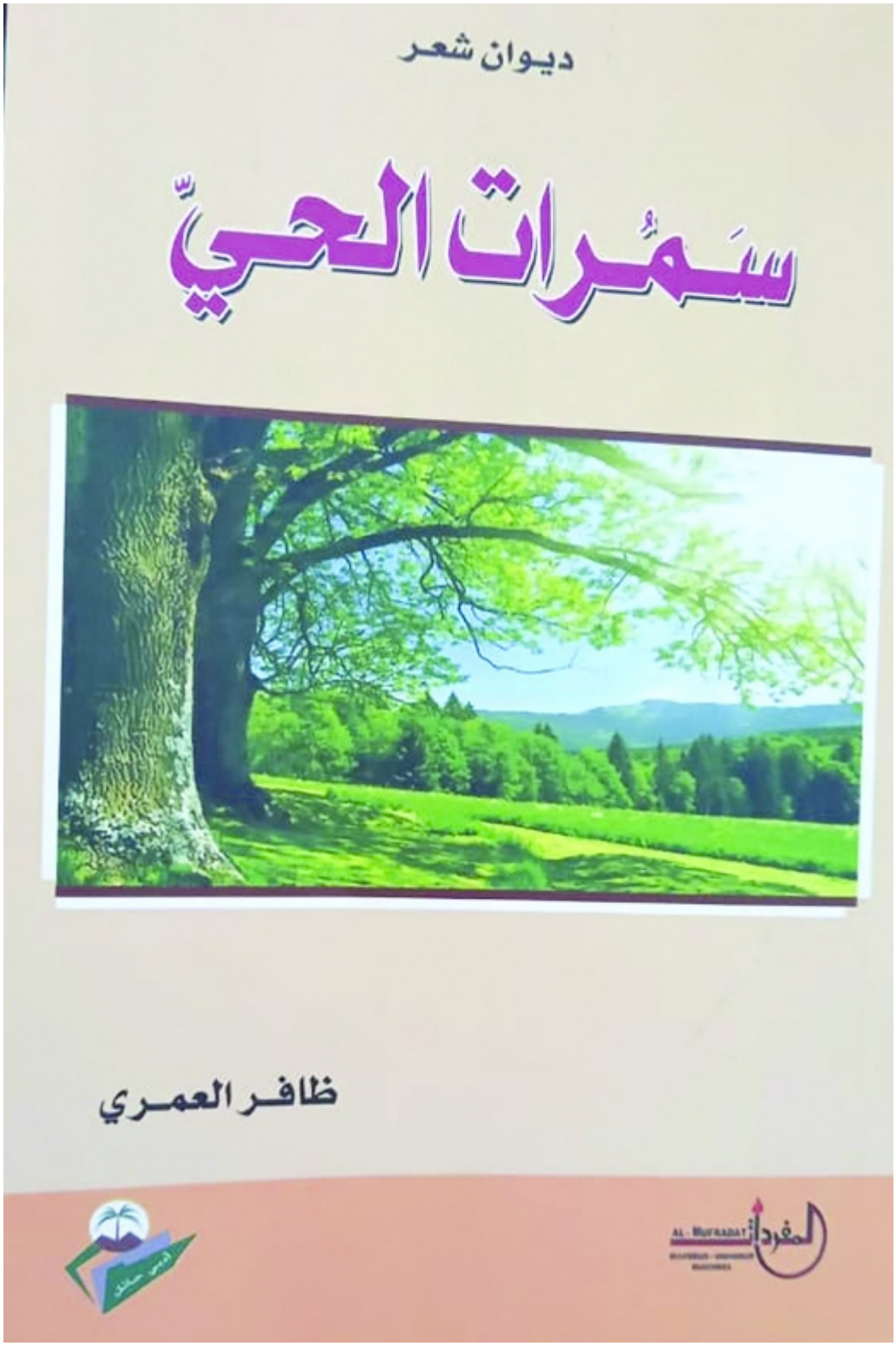

والحمد لله رب العالمين

الدكتور: يوسف حسن العارف

جـــدة ...

من الأربعاء 4/11/1444هـ

إلى الأحد 8/11/1444هـ